السلطان سليمان الأول

(القانوني)

فترة الحكم: ١٥٢٠– ١٥٦٦

السلطان العثماني العاشر

الألقاب والأسماء الشعرية: القانوني، العظيم (حيث كانت فترة حكمه واحدة من أكثر فترات الحكم ازدهارا في تاريخ العالم)، الغازي، مُحبِّي (وكان هذا اسمه الشعري)، صاحب قِران (أي الحاكم الناجح دوما)، وصاحب العَشرة الكاملة (أي متمم العشرة؛ لأنه السلطان العثماني العاشر)

اسم الأب: السلطان سليم الأول

اسم الأم: السلطانة الوالدة حفصة

محل وتاريخ الميلاد: طرابزون،
٦ نوفمبر/تشرين الثاني سنة ١٤٩٤

العمر عند اعتلاء العرش: ٢٦ عاما

سبب وتاريخ الوفاة: السرطان، ٧ سبتمبر/أيلول سنة ١٥٦٦

مكان الوفاة وموقع الضريح: توفي بزِيكتوار ببلاد المجر، ويقع قبره بالقرب من مسجد السليمانية الذي بناه في السليمانية بإسطنبول

أبناؤه: سليم الثاني، وبايزيد، وعبد الله، ومراد، ومحمد، ومحمود، وجهانْكيرْ، ومصطفى

بناته: مهرِماه سلطان، وراضية سلطان

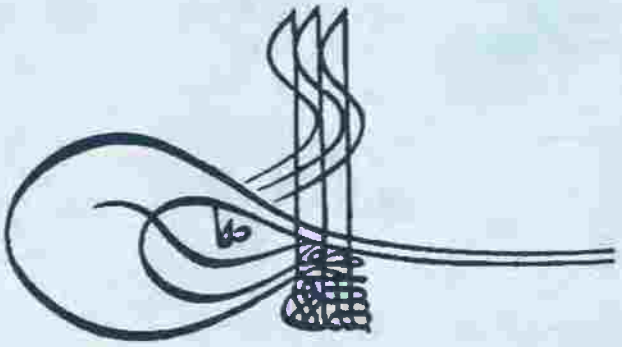

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان سليمان العظيم، بريشة الفنان ليفني في أعماله المعروفة باسم "صور متخيلة لشجرة العائلة العظمي".

تعد ماسة كاشيكجي، التي تتخذ شكل الكمثرى، والتي تزن ٨٦ قيراطا ومحاطة بصفين من تسع وأربعين ماسة أصغر، أشهر قطعة في قصر "طوب قابي".

وُلد سليمان الأول في طِرَابْزُون حيث قضى أبوه السلطان ياووز سليم الأول سنواته كولي للعهد وحاكم عليها، وكان الابن الوحيد له، فتلقى تعليما جيدا جدا منذ طفولته، وتربّى بعناية فائقة. وقد تركز تعليمه على إدارة الدولة والجيش والعلوم الإسلامية. وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره نُقل إلى "شَبِينْ قارا حِصار" وإلى "بُولُو" في العام التالي حيث عُين واليا على كفّا. وساند سليمان والده، كما شارك في تحرك والده من طرابزون إلى إسطنبول.

عاش سليمان في إسطنبول و"أدِرْنه" خلال الفترة التي كان أبوه يتنافس خلالها مع أعمامه على العرش، وكان مقيما بإسطنبول عندما اعتلى السلطان ياووز سليم العرش عام ١٥١٢. وأصبح سليمان بعد ذلك واليا على "صَارُوهان" (مانيسا الآن) في غرب الأناضول حتى وفاة والده. وفي ٣٠ سبتمبر/أيلول سنة ١٥٢٠، أي بعد ثمانية أيام من وصول الأنباء الحزينة عن وفاة والده، وصل إلى إسطنبول وجلس على العرش بعد مراسم الاعتلاء على العرش في قصر "طوب قابي".

كان السلطان سليمان حسن الحظ؛ فقد ترك له أبوه خزينة سلطانية ممتلئة عن آخرها، وجيشا مخلصا وقويا في البر والبحر، ولم يكن له إخوة ذكور لينافسوه على العرش. كان القانون الأول الذي أصدره سليمان، والذي سوف يُعرف لاحقا بالقانوني (أي القوانين)، هو رفع الحظر عن استيراد خيوط الحرير.

ورغم أن عهد سليمان الأول بدأ بفرص عظيمة، فإنه اضطر في سنوات حكمه الأولى على الكفاح ضد الثورات التي نشبت في الأناضول ومصر. وكان أهم ما يشغله هو تمرد "بابا ذو النون" المناصر للدولة الصفوية بالقرب من "يُوزْغات في الأناضول عام ١٥٢٦، وتمرد "قَلَنْدَرْ أوغلو" الذي تفجر بالقرب من كارامان، وذلك بسبب مشكلات تتعلق بالإقطاعيين أو "التيمار". وفي مصر اضطر لقمع تمرد جان بَرْدي الغزالي (١٥٢١) وتمرد أحمد باشا (١٥٢٤)، اللذين نشبا في إطار محاولات لإحياء دولة المماليك. وبعد أن فرغ من ذلك اتجه سليمان إلى فتوحات جديدة.

خلال عهد سليمان القانوني، كان تشارلز (Şarlken) الخامس هو الإمبراطور الروماني المقدس الهابسبورغي (١٥٠٠-١٥٥٨) وكانت تربطه علاقات عائلية مع المجر والنمسا. وكان نمو إمبراطورية تشارلز الخامس في وسط أوروبا والبحر المتوسط سببا جعل السلطان يحدّد أوروبا وجهة لحملاته القادمة. ولذلك السبب

عمل الجيش العثماني في الغرب خلال عهد سليمان القانوني في حين كان متوجها إلى الشرق والجنوب في عهد ياووز سليم.

زار السلطان سليمان القانوني قبور أجداده وقبر الصحابي أبي أيوب الأنصاري (المعروف أيضا باسم السلطان أيوب) في إسطنبول في ١٩ مايو/أيار عام ١٥٢١، وأقام مقره العسكري في "هالْكَالي بِنَارْ". وبعيد ذلك حدد جيشه مساره، عبر"أدِرْنه" -القاعدة العسكرية الرئيسية لجميع حملات القرن السادس عشر تجاه الغرب إلى أوروبا- ثم شمالا مرورا بمدن بلوفديف (فِيلِبّة) وصوفيا ونيش. وصل الجيش أخيرا إلى بلجراد، وجهته الأخيرة، وحاصر المدينة لمدة ثمانية وعشرين يوما وانتهى الحصار بفتح بلجراد عام ١٥٢١، وهو الفتح الأول للسلطان سليمان. وصلى السلطان صلاة الجمعة في أول مسجد ببلجراد، ثم عاد إلى إسطنبول حاملا اسم "فاتح بلجراد"، وهو أمر كان سيفخر به جده السلطان محمد الفاتح. تسبب فتح بلجراد في تفاقم العلاقات بين العثمانيين والمجر، وذلك لأنه مهد الطريق تماما للعثمانيين تجاه المجر وأمدهم بقاعدة عسكرية حيوية من الناحية الإستراتيجية من أجل الفتوح التالية في أوروبا.

دخل سليمان القانوني في حربه البحرية الأولى في العام التالي، فاستولى على جزيرة رودس، وهي منطقة أخرى كان ينافس جده محمد الفاتح عليها من أجل السيطرة على البحار العثمانية. وتقع جزيرة رودس على بعد أحد عشر ميلا غرب شواطئ الأناضول، ومع مرور الزمن تحولت إلى جزيرة قراصنة. فقد دأب فرسان القديس يوحنا في رودس على القرصنة في البحار العثمانية، واعتراض التجارة العثمانية في البحر المتوسط، وتهديد أمن الساحل الغربي الأناضولي. وقد دعّم فتح الجزيرة في ٢١ من يناير/كانون الثاني عام ١٥٢٢ أمن الطريق البحري القادم من مصر مرورا بسوريا ليصل شمالا إلى الأناضول.

كان فرانسيس الأول ملك فرنسا سجيناً في بافيا لدى تشارلز الخامس بعد الحرب التي نشبت بين فرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقرر الفرنسيون، كحل أخير، اللجوء للعثمانيين للمساعدة، حيث طلبت لويز دي سافوي والدة فرانسيس من سليمان القانوني إنقاذ ابنها. واعتقد فرانسيس الأول أن تشارلز الخامس سوف يطلق سراحه إذا توجه الجيش العثماني إلى المجر.

وفي يوم ٢٩ أغسطس/آب سنة ١٥٢٦، انتصر الجيش العثماني بقيادة السلطان سليمان على الجيش المجري في موهاج على الضفة اليمنى من نهر الدانوب، في معركة تعد من أقصر المعارك الضارية في التاريخ. وأطلق سراح

الملك الفرنسي. وقد صرّح فرانسيس الأول ملك فرنسا للسفير البندقي جورجيو جريتّي أنه يعتبر الدولة العثمانية القوة الوحيدة لحماية الدول الأوروبية ضد التوسع القتالي لتشارلز الخامس، وهو ما يوضح كيف كان ينظر الأوروبيون للسلطان سليمان.

بعد الانتصار الكبير في معركة موهاج أصبحت المجر تحت السيادة العثمانية. وعلم السلطان أن ضم الأراضي المجرية إلى الأراضي العثمانية بشكل مباشر سيكون غاية في الصعوبة لأنها تقع بعيدا جدا عن المركز العثماني خلف نهر الدانوب،[٢٠] ولذلك فقد قرر إبقاء المجر تحت السيادة العثمانية مع وجود حكم ذاتي محدود، فعين المجري الارستقراطي يانوس زابوليا ملكا جديدا للمجر.

لكن فرديناند، شقيق تشارلز الخامس والأرشيدوق الهابسبورجي للنمسا، طالب بالعرش المجري لنفسه، وبالتالي لم يعترف بسلطة يانوس زابوليا كملك جديد على المجر. ثم توجه للاستيلاء على العاصمة المجرية بودا،[٢١] وقام بنفي يانوس، وأعلن أنه الملك المجري الجديد. فأعاد السلطان الاستيلاء على بودا وأعلن تنصيب يانوس ملكا على المجر مرة أخرى في ٨ سبتمبر/أيلول عام ١٥٢٩. ووافق يانوس على دفع جزية سنوية للعثمانيين، وفي المقابل احتفظ السلطان بموقع للقوات الانكشارية في حصن المجر.

ورغم انتهاء موسم الحملات فقد استمر السلطان سليمان في قيادة جيشه إلى أن وصل إلى فيينا وحاصر العاصمة النمساوية عام ١٥٢٩، في محاولة لإلقاء الرعب في قلب

لوحة بفن المنمنمات تصوّر السلطان سليمان العظيم في حرب موهاج، بريشة الرسام نقاش عثمان، رسّام البلاط السلطاني في لوحته هُنَرْ نامَه، ١٥٤٨

---

[٢٠] ينبع نهر الدانوب، الذي يعد ثاني أطول نهر في أوروبا، من منطقة الغابة السوداء (بلاك فورست) في الشمال الغربي، ويمر خلال السهل المجري وعدد من العواصم الأوروبية للركرية والشرقية ومنها فيينا وبودابست وبلجراد قبل أن يصب في البحر الأسود في الشرق.

[٢١] بودا هي الجزء الغربي من بودابست اليوم على الضفة الغربية من نهر الدانوب.

لوحة بفن المنمنمات لمخطوطة "سليمان نامة" المفصلة (تاريخ السلطان سليمان) تصوّر السلطان سليمان وهو يشهد مراسم ختان ولديه الأمير بايزيد والأمير جهانكير بقاعة النافورة في قصر "طوب قابي".

الأرشيدوق الهابسبورجي فرديناند. ولأن الهدف لم يكن فرض حصار طويل الأمد على فيينا من أجل فتحها، فقد كانت الاستعدادات العسكرية قصيرة. ومن المؤكد أن فرديناند تنفس الصعداء في بداية الشتاء عندما رفع العثمانيون الحصار الذي دام ثلاثة أسابيع.

ثم أرسل فرديناند ملك النمسا مبعوثه إلى لسلطان سليمان القانوني طالبا منه الاعتراف به ودعمه بدلا من دعم يانوس. وفي هذه الأثناء نفسها قام فرديناند بهجوم على مدينة بودا مجددا، وهي أرض عثمانية، فأعد سليمان القانوني هذه المرة حملة عسكرية ضد الهابسبورجيين ليقطع دابر دعم الإمبراطور تشارلز الهابسبورجي لفرديناند. وتحرك السلطان باتجاه عمق النمسا وأوروبا الوسطى، ورغم دعواته المستمرة لفرديناند وتشارلز الخامس كي يأتيا إلى ساحة المعركة، إلا أنهما لم يجرأا على التحدي. لم تضمن هذه الحملة سيطرة السلطان سليمان على المجر فحسب، بل إنها أجبرت فرديناند أيضا على طلب الهدنة. ولما كان على السلطان مواجهة التهديد المتنامي لبلاد فارس الصفوية في الشرق، فقد قبل عرض السلام الذي قدمه فرديناند عام ١٥٣٣. وبذلك اعترف فرديناند ملك النمسا بتفوق سليمان القانوني، واعترف بيانوس كملك، وتنازل عن مطالبه في النمسا، ووعد بدفع ثلاثين ألف قطعة ذهبية سنويا للعثمانيين.

وعندما استردّ أندريا دوريا، الأميرال الإمبراطوري لقوات تشارلز الخامس البحرية "كورون" من العثمانيين وهي تقع جنوب غرب المورة، أدرك سليمان القانوني أن التنافس على البحر المتوسط قد بدأ. ولهذا فقد عيّن خير الدين باربا روس (بربروس) باشا، البحار التركي الشهير وفاتح الجزائر، قائدا عاما على القوات البحرية العثمانية. وقد أسفر الإصرار المتزايد من جانب الفرنسيين، الذين سعوا إلى تحالف رسمي مع الدولة العثمانية منذ وقت مبكر عام ١٥٣١ بهدف تأمين أنفسهم عن تحالف فعلي تم توقيعه عام ١٥٣٦.

خلف الشاه طهماسب الشاه إسماعيل على عرش الدولة الصفوية. وكان الصفويون قد عانوا من هزيمة أكيدة في معركة شالديران (جالديران) خلال عهد ياووز سليم، وعندما حاول الشاه الجديد إقامة تحالفات مع المملكة النمساوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة تحرك سليمان القانوني بجيشه ضد الصفويين.

كان الشاه طهماسب قد أثار أيضا عددا من البكوات في الأناضول ضد السلطة العثمانية، وهدد السيطرة العثمانية في شرق وجنوب شرق الأناضول؛ مما كان سببا آخر دفع سليمان القانوني لاتخاذ موقف معادٍ لبلاد فارس الصفوية. وبعد بضعة أشهر من وفاة والدة السلطان كانت حملته الأولى على بلاد فارس الصفوية. ودخل الصدر الأعظم إبراهيم باشا العاصمة تبريز بجيشه. ووجه السلطان سليمان حملته شمالا إلى هَمَدان بُعيد استيلائه على أذربيجان. ولأن الشاه طهماسب لم يستطع أن يخاطر بتحدي الدولة العثمانية، فقد هرب إلى داخل بلاد فارس. وتحرك السلطان جنوبا وفتح بغداد عام ١٥٣٤.

وبعد فتح بغداد في تلك الحملة، أصبحت مدن الإسلام الست المقدسة (وهي مكة والمدينة ودمشق

وإسطنبول والقدس وبغداد) تحت السيطرة العثمانية. وعلاوة على ذلك، فقد مهدت الحملة الطريق للسلطان سليمان القانوني أن يجعل جزءا أكبر من طريق الحرير تحت السيطرة العثمانية. وعلى صعيد البحر المتوسط، نجح تشارلز الخامس في الاستيلاء على تونس عام ١٥٣٥. لكن القوات العثمانية البحرية بقيادة خير الدين بارباروس باشا أزعجت الأوروبيين لاحقا عندما استولوا على عدة حصون بندقية في بحر إيجه وقاموا بالعديد من الجولات على طول الشواطئ الإيطالية. ونتيجة لذلك قامت ثلاث دول، هي البندقية وجنوة ومالاتيا، بتوحيد قواتها في جزيرة كورْفو التي تقع قبالة ساحل ألبانيا قريبا من نهاية حدود السيادة العثمانية في البحر المتوسط. وفي ذلك الوقت جرى إعداد أسطول صليبي هائل وتسليمه لأندريا دوريا ليكون قائدا له.

سمع خير الدين بارباروس باشا بأنباء هذا الأسطول الصليبي، فأبحر بأسطوله إلى بريفيزا التي تقع عند مصب خليج آرتا على البحر الأيوني. ونجحت القوات العثمانية، بقيادة أميرالات متميزين آخرين مثل صالح رئيس وسيدي علي رئيس وطورغوت رئيس، في تشتيت الجيش الصليبي الذي بدا أكثر عددا وقوة في أول الأمر. وفي ٢٨ سبتمبر/أيلول عام ١٥٣٨ أحرز العثمانيون واحدا من أعظم الانتصارات البحرية مكانة في التاريخ العثماني، وهرب أندريا دوريا نفسه واستطاع أن ينجو بحياته بصعوبة.

ضمن نصر بريفيزا السيادة العثمانية في البحر المتوسط، ومازال يوم ٢٨ سبتمبر/أيلول، ذكرى هذا النصر، مناسبة قومية يحتفل بها في تركيا باسم "يوم القوات البحرية التركية". وعلاوة على ذلك فقد أجبر هذا الانتصار البنادقة على الاعتراف بالسيطرة العثمانية على الحصون في المورة وسواحل دالماشيا، وفي المناطق التي فتحها خير الدين باشا بارباروس.

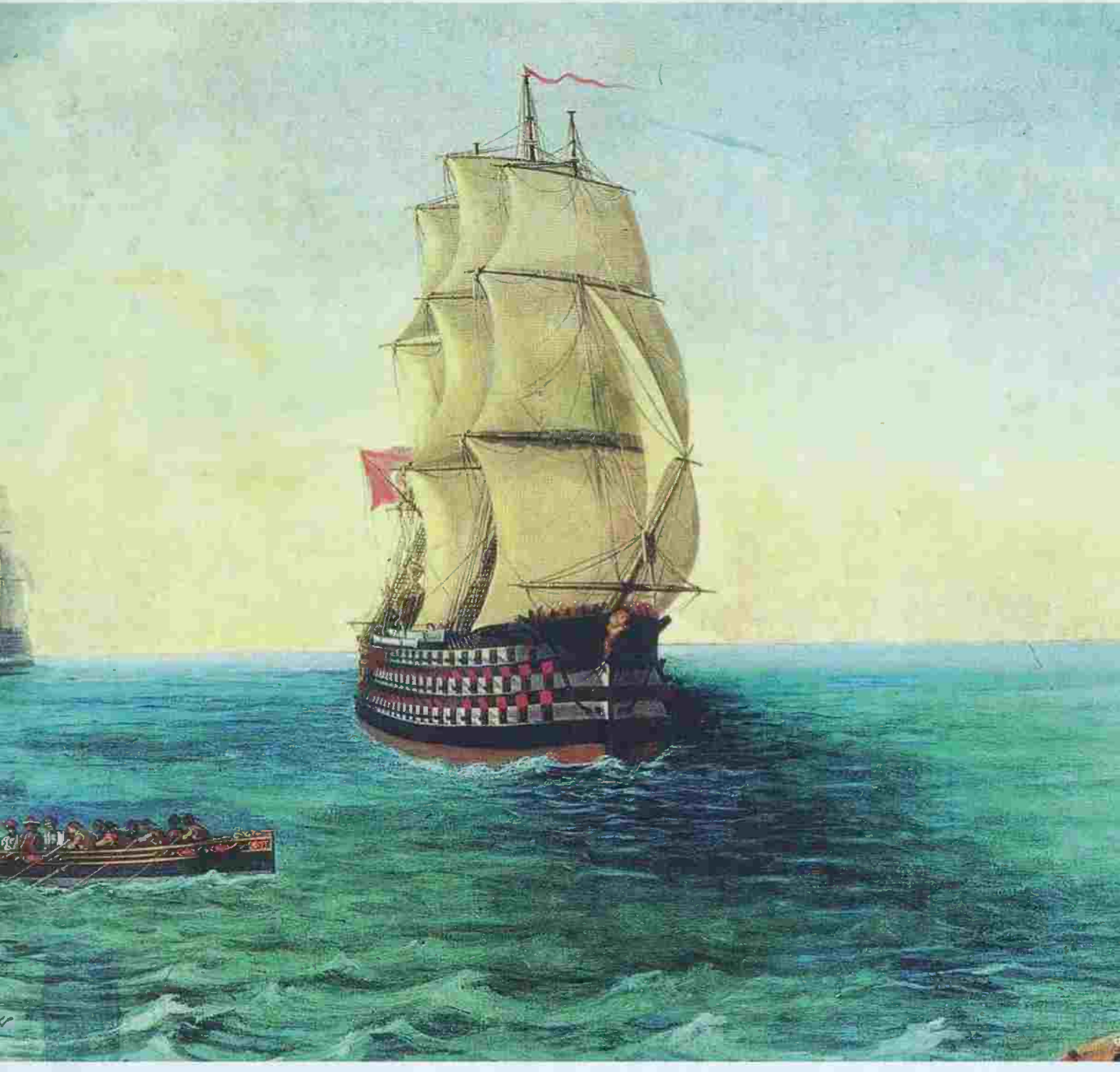

لوحة تُصور وصول الأسطول العثماني، بريشة فنان مجهول.

ورد سليمان على مبعوثي تشارلز الخامس بأنه لن يوقع أية اتفاقية سلام حتى يتم إعادة الأراضي الفرنسية للفرنسيين. وفي الواقع أن فرنسا استفادت مكاسب كثيرة من تحالفها مع الدولة العثمانية، التي كانت القوة العظمى في ذلك الوقت.

وعندما توفي الملك يانوس المجري في عام ١٥٤١، حل ابنه الطفل سيجسموند محله، فأعلن فرديناند ملك النمسا أنه لا يعترف بسيجسموند كملك جديد، وغزا المجر مرة أخرى. فاستنجدت إيزابيلا أم سيجسموند بسليمان القانوني هذه المرة فردّ السلطان بإرسال جيش مرة أخرى إلى المجر، وجعل المجر مقاطعة عثمانية مباشرة تحت إدارة حاكم عام أو بَيْلَر بَك.

واستنجد الملك فرانسيس الأول ملك فرنسا بسليمان القانوني عندما فشل أمام تشارلز الخامس؛ فأرسل السلطان الأسطول العثماني إلى فرنسا بقيادة خير الدين بارباروس باشا. ورسا بارباروس في مرسيليا في عام ١٥٤٣، واستولى على حصن "نِيشْ" وسلمه للفرنسيين. وفي نفس العام قام السلطان بحملة إلى أسترجون على الضفة اليمنى من نهر الدانوب، والتي تبعد حوالي ثلاثين ميلا في اتجاه الشمال الغربي من العاصمة المجرية، وذلك لأن الدول الأوروبية تدخلت في الشؤون الداخلية للمجر. ونجح في فتح أسترجون واستولى على بلجراد (المعروفة حاليا باسم فهرفار)، لكن فرحة انتصاره قاطعتها الأنباء الحزينة عن وفاة ابنه الأمير محمد. وطلب السلطان إحضار جنازة ابنه، الذي كان واليا على مانيسا، إلى إسطنبول حيث صلى عليه صلاة الجنازة مع الشعب في مسجد بايزيد بميدان بايزيد. وأمر السلطان سليمان المعماري العظيم سنان ببناء مسجد شَهْزاده (الذي يتضمن مجمعا خيريا أيضا) لتخليد ذكرى ابنه.

كان الصفويون قد بدءوا هجوما مضادا على العثمانيين فيما كان السلطان سليمان القانوني يقاتل في وسط أوروبا، ولذلك أعلن السلطان عن حملة ثانية على بلاد فارس الصفوية عام ١٥٤٨. واستمرت المعارك سبعة أعوام تخللتها فترات انقطاع وانتهت بتوقيع اتفاقية في أماسيا عام ١٥٥٥. وتعد اتفاقية أماسيا التي وقعها سليمان القانوني والشاه طهماسب أولى الاتفاقيات العثمانية-الفارسية في التاريخ. وقد نصت على أن العثمانيين سوف يحتفظون بملكيتهم لشرق الأناضول وأذربيجان وتبريز وميزوبوتاميا بما فيها بغداد، مما يسمح للعثمانيين بالوصول إلى الخليج العربي.

أخذ تشارلز الخامس عددا كبيرا من فرسان القديس يوحنا في رودس ووضعهم في طرابلس، والتي خُصصت للفرسان كقاعدة للعمليات البحرية في البحر المتوسط. فأرسل سليمان القانوني الأميرال العثماني طورغوت رئيس (المعروف لدى الغرب باسم دراجوت) في مهاجمة طرابلس. فشن تورقوت رئيس هجوما على طرابلس، واستطاع فتح هذه المدينة الساحلية الإستراتيجية وضمها للسيادة العثمانية في أغسطس/آب عام ١٥٥١.

كان الصليبيون يهدفون إلى التخلص من العثمانيين في إفريقيا، وأعاقوا تقدم طورغوت رئيس في البحر

المتوسط، ولذلك ضرب طورغوت رئيس حصارا على جَرْبة أكبر جزيرة قبالة سواحل شمال إفريقيا في خليج قابس، وكانت تخضع لسيادة الأسبان. وعندما سمع أندريا دوريا، الأدميرال وقائد المرتزقة الجنوي، بالحصار أبحر بأسطوله بالقرب من جربة مما أجبر طورغوت رئيس على طلب تعزيزات. ثم حدثت مواجهة بين الأسطول العثماني بقيادة الأميرال العام بيالي باشا والأسطول الصليبي، فهزم الصليبيون هزيمة ساحقة مرة أخرى. وفتح العثمانيون جربة عام ١٥٦٠ واعترفت أوروبا بالسيادة العثمانية على غرب البحر المتوسط بالإضافة إلى الوجود العثماني في شمال إفريقيا الذي دام لأربعة قرون.

أمر السلطان سليمان القانوني بحصار مالطة عام ١٥٦٥ وأوكل إلى طورغوت رئيس مهمة فتح مالطة، لكن الحصار القائم على مالطة توقف بعد استشهاده خلال الحصار. ولم يحاول العثمانيون الاستيلاء على مالطة مرة أخرى. وفي العام التالي رفعت جزيرة صاقيز (سيوس) في بحر إيجه العلم العثماني.

لقد اكتسب الأسطول العثماني القوة الكافية لمنافسة الدول الأوروبية خلال عهد محمد الفاتح، ومر بعهده الذهبي خلال فترة حكم سليمان القانوني الذي تمكن من تحقيق انتصارات عظيمة على ألدّ أعداء الدولة العثمانية.

كان فتح إسطنبول ومصر قد ضمن السيطرة العثمانية على الطرق التجارية الحيوية، ولذلك بدأ الأوروبيون يبحثون عن شبكات جديدة لتسهيل أنشطتهم التجارية، فأبحر البرتغاليون للمحيط الهندي، وأقاموا مستعمرات في الهند، وسيطروا على الطرق التجارية البحرية الهندية. وإضافة إلى ذلك فقد مارسوا ضغوطا على الولايات الإسلامية في الهند ونهبوا سفن التجار المسلمين. وردّا على كل ذلك وعلى استغاثة ولاية جوجارات الهندية بسليمان القانوني قامت الدولة العثمانية بشن أربع حملات متعاقبة على الهند.

أسفرت الحملة الأولى بقيادة "خادمْ سليمان" باشا عام ١٥٣٨ عن ضم اليمن وعدن والسودان وبعض الأراضي الإثيوبية إلى الحكم العثماني. وأسفرت الحملة البحرية الثانية عام ١٥٥١ بقيادة بيري رئيس عن فتح مسقط جنوب شرق الجزيرة العربية. أما الحملتان الثالثة والرابعة فقد كانتا بقيادة "مراد رئيس" عام ١٥٥٢ و"سَيْدي علي رئيس" عام ١٥٥٣، غير أنهما لم يسفرا عن أية نتائج ملموسة، لكن الحملات البحرية على الهند أثمرت إجمالا عن وفاء العثمانيين بمسؤولية الخلافة.

بعد ذلك قاد سليمان القانوني، الذي لم يَخُض أيّة حملات مهمّة منذ عدة سنوات، جيشه للمرة الأخيرة في عام ١٥٦٦ ضد فرديناند ملك النمسا الذي نقض اتفاقية السلام مع العثمانيين عندما هاجم إمارة ترانسيلفانيا (Transylvania) التي تقع تحت السيادة العثمانية. ورغم مرضه وعمره الذي بلغ اثنين وسبعين عاما فقد أقنعه الصدر الأعظم محمد باشا سوكولّو بأن يقود الجيش العثماني بنفسه في تلك الحملة. وكان السلطان مريضا جدا بحيث لا يقوى على امتطاء فرسه، والأسوأ من ذلك أن حالته ازدادت خطورة بعد أن اجتاز "أدِرْنه." وحاصر الجيش العثماني حصن "سيكتوار"، وبعد حوالي شهر من متابعة الحصار من فراش المرض توفي سليمان القانوني

كان السلطان سليمان هو الذي أجرى أوسع عملية إصلاحات في الحرمين الشريفين. وتشير الصورة إلى المسجد الحرام في تسعينيات القرن التاسع عشر.

في ٧ سبتمبر/أيلول عام ١٥٦٦. غير أن وفاته بقيت سرا كي لا يتشتت انتباه الجيش العثماني، وفُتح الحصن بعد أربعة وثلاثين يوما من الحصار، وصار الزحف إلى زِكْتُوار الحملة الناجحة الأخيرة لسليمان القانوني.

اتسم عهد سليمان القانوني - الذي دام ستة وأربعين عاما - بالفتوحات والأنشطة الثقافية والازدهار الحضاري. وأكسبته انجازاته لقبه المستحق "العظيم" الذي نسبه الغرب إليه، وكان أحد هذه الإنجازات تحطيم رقمه القياسي في ركوب فرسه ٣٠ ألف ميلا طوال حياته. وقد ركز في توجهه السياسي على أوروبا ودول البحر المتوسط بعد زيادة الاقتصاد الأوروبي بحلول عصر الاكتشافات في القرن السادس عشر.

لم تكن شخصية سليمان القانوني شخصية طيبة لطيفة مثل جده، ولا كان عصبيا صارما مثل أبيه، بل كان يتمتع ببعد نظر ويعمل باجتهاد وإتقان. وترك له أبوه خزانة ممتلئة عن آخرها وجيشا قويا، إضافة إلى أنه ترك له ميراثا بنى عليه مهاراته القيادية المستقبلية. وقاد سليمان القانوني جيشه في العديد من المعارك شرقا وغربا، وعندما حانت ساعته مات في ساحة المعركة وليس في القصر.

لم يكن سليمان مخططا ورجل سياسة بارعا فحسب، بل كان أيضا مشرعا مشهورا. فقد قاد إدارة دولة

جزء من خريطة العالم، رسمها بيري ريس، وتظهر المحيط الأطلسي وأسبانيا وشمال غرب إفريقيا، وشمال شرق ووسط أمريكا، ويعود تاريخها إلى شهر أبريل/نيسان عام ١٥١٣. متحف قصر "طوب قابي".

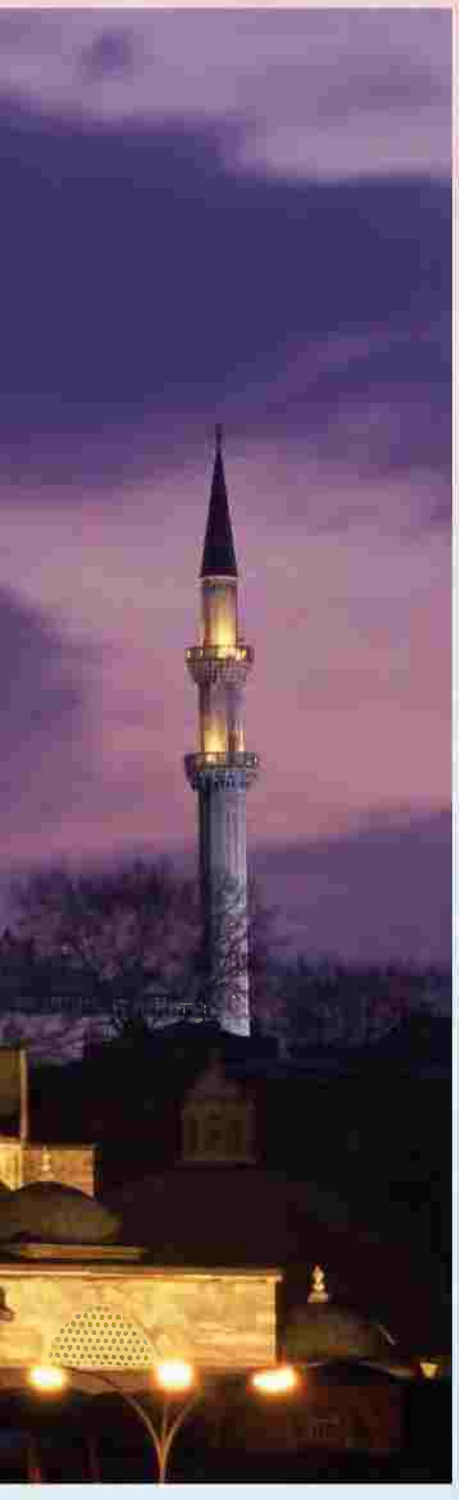

تعمل بشكل نظامي وجيشا حديثا قويا وكثير التحرك. ولم يكن هناك خلال عهده جيش أو أسطول في العالم أقوى من جيشه وأسطوله، وكان يمتلك سلطة مطلقة على قواته العسكرية. إلى جانب انتصاراته العظيمة في الشرق والغرب، اشتُهر السلطان بإصلاحاته الإدارية والقانونية وهو ما أكسبه اسم "القانوني"، وضَمِن بقاء الدولة وقتا طويلا بعد وفاته. وبفضل قراراته الموفقة فيما يخص تقسيم العمل وموهبته المدهشة في تعيين الشخص المناسب في المكان المناسب، بالإضافة إلى تدريب موظفيه، أديرت شؤون الدولة بنجاح كبير خلال عهده.

وقد شهد عهد السلطان سليمان الطويلُ الذي دام ستة وأربعين عاما قمة ازدهار الفنون والثقافة العثمانية. وكانت العديد من الجمعيات الفنية، التي كانت تسمى "أهل الحِرَف"، تُدَار تحت رعايته. ووفقا لسجلات صناعة الفنون العثمانية ومنظمتها (التي مازالت محفوظة في سجلات قصر "طوب قابي")، كان سليمان القانوني يتفقد بنفسه أعمال الفنانين ويكافئهم على إنجازاتهم الرائعة.

وخلال تلك الفترة تطورت الفنون الجميلة وفنون الديكور، وبخاصة فن الخط العربي، وفن المنمنمات، ورسم المخطوطات، والطباعة بالحفر، والنقش على الخشب والحجر، والخزف، والفخار، والنسيج، وغير ذلك. ومن بين الإنجازات المعمارية البارزة في ذلك العصر الذهبي كانت جوامع السلاطين التي بناها السلطان وأفراد العائلة السلطانية وصُممت كجزء من "كلية"، وهو مجمع مبانٍ لتقديم الخدمات الخيرية المختلفة للصالح العام يتضمن كليات ومدارس طبية ومستشفيات ومطاعم للفقراء وخانات وحمامات عامة. وقد عيّن السلطان سليمان المعماري العظيم سنان، الذي يعد واحدا من أعظم المعماريين في تاريخ العالم، كبيرا للمعماريين الملكيين. ويبلغ تراثه أكثر من ثلاثمائة بناء موجود في مناطق مختلفة من الدولة من البلقان إلى الحجاز، تتضمن ٥٧ مجمعا، و٤٦ خانا أو فندقا، و٣٥ قصرا ومنزلا، و٤٢ حماما عاما، و٢٢ مدفنا، و١٧ ملجأ، و٣ مستشفيات، و٧ قنوات مائية، و٨ جسور، و٨ صوامع للحبوب، و١٣٥ مسجدا. ويعد المسجدان اللذان أُنشئا باسم سليمان القانوني في إسطنبول

منظر ليلي لمسجد سليمان، الذي يقع على قمة تلّة تُشرِف على مشهد شبه الجزيرة التاريخية لإسطنبول.

ودمشق أبرز الآثار على الإطلاق في كلا المدينتين. وقد أمرت ابنته مِهْرِمَاه سلطان أيضا المعماري العثماني الشهير سنان بأن يبني لها مسجدين يحملان اسمها في إسطنبول، يقع أحدهما في أُسْكُودَار على الساحل الآسيوي للمدينة، والآخر في الجانب الأوروبي عند بوابة أدِرْنه بالأسوار القديمة للمدينة. ويخلّد هذا المسجد الأخير ذكرى مؤسسته بأسلوبه الأنيق وزخارفه الجميلة.

غير أن أكبر المشروعات في عهد سليمان تمت في الأراضي المقدسة؛ فشُيدت أولا ملاجئ لاستضافة الحجاج الذين يبيتون ليلا في مكة حول مقر المسجد الحرام، وأقيم حمام تركي ضخم للاستحمام والتنظيف، ليمنع حشود الحجاج الغفيرة من تلويث المسجد الحرام، وكان ذلك عام ١٥٦٦. وفي تلك الفترة أيضا تم إحلال قباب حجرية محل الأسقف الخشبية للرواق المعمّد حول الكعبة، ومازالت هذه القباب الحجرية باقية حتى اليوم. وفي مكة أقيمت أقدم مدرسة معروفة إلى يومنا هذا عام ١٥٦٥ خلال عهد السلطان سليمان، حيث صمم خطط البناء المعماري العظيم سنان، وبلغت ميزانية التشغيل ٣٠ ألف عملة ذهبية. وبنيت المدرسة بمواصفات خاصة لتلبية احتياجات المذاهب الأربعة الأساسية للفقه الإسلامي.

كان الحجاج في المدينة يتعرضون من وقت لآخر لتهديد هجمات العُربان خلال موسم الحج، ولم تكن الأسوار القائمة حول المدينة كافية لردع تلك الهجمات. ولذلك قدم أهل المدينة طلبا للسلطان سليمان بشأن هذا الأمر، فأصدر السلطان قرارا بتحصين الأسوار ورفعها بناء على خبرة العثمانيين العسكرية والإنشائية. وبعد سبع سنوات من العمل الشاق، ظهرت الأسوار الجديدة والقوية والعالية حول المدينة في عام ١٥٣٣. وأضيفت أبراج مراقبة للأسوار التي تحيط بمقابر جنة البقيع. وإضافة إلى ذلك بُني حصن داخل الأسوار يضم تسعين جنديا، وبذلك تمت حماية مدينة الرسول ﷺ.

وبدأ تقليد البناء في المسجد النبوي في التاريخ العثماني بسليمان القانوني عندما أرسل المهندسين والحرفيين من إسطنبول فأجرى هؤلاء الخبراء إصلاحات وتجديدات في مسجد الرسول ﷺ بداية من الحوائط الغربية لقبر الرسول ﷺ (حجرة السعادة)، وكان ذلك عام ١٥٤٠. وفي المدينة أيضا عُيّن علماء في وظائف ثابتة يعلّمون الناس في المسجد النبوي، بينما خُصصت ميزانية سنوية لأجور الأشخاص الآخرين الذين يخدمون في المسجد. كما جدّد السلطان سليمان القانوني قبر السيدة عائشة، زوجة الرسول ﷺ، الموجود في مقابر جنة البقيع، ونفّذ في مسجد القبلتين بالمدينة أكبر خطة بناء شاملة منذ عهد الخليفة العباسي عمر بن عبد العزيز (حكم من ٧١٧ إلى ٧٢٠). وقام السلطان أيضا بنصب أسوار حول مدينة القدس كما أنشأ نوافير ومداخل ضخمة في القدس.

أنفقت "مِهرماه سلطان" ابنة السلطان سليمان القانوني مبالغ كبيرة من الأموال لنقل خزان مياه عين زبيداء من عرفات إلى مكة، وهي عين كانت قد حفرتها زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد (حكم من ٧٨٦ إلى ٨٠٩). ومنذ عهد السلطان سليمان وبعده كانت الكسوة الخارجية للكعبة المشرفة تعد في مصر، بينما كانت كسوتها الداخلية تعد في إسطنبول.

لم يحصر السلطان خدماته على الأراضي المقدسة فقد أنشأ سلسلة من الحصون تحوي خزانات مياه على طريق القوافل من أجل الحجيج خلال رحلتهم الطويلة الشاقة عبر الصحراء من دمشق إلى مكة. ومن أجل ذلك أنشأ حصنا وحفر آبارا جديدة في مَعَان بالأردن في الطريق إلى مكة، وهو ما وفر للحجاج أماكن آمنة للتوقف خلال سفرهم الطويل في الصحراء المحفوف بمخاطر الإنهاك ونقص الغذاء والمياه والهجوم عليهم. وعلى نفس المنوال حفر السلطان سليمان العديد من الآبار، وشيد حصنا عثمانيا في قرية ذات الحاج بمنطقة تبوك في الجزيرة العربية. وفي مدحهم للحصن الذي أقامه السلطان في أُحد بالقرب من المدينة، قال بعض الحجاج الفارسيين ذات مرة: "إن مواد بناء هذه القلعة ليست موجودة حتى في إسطنبول".